مجلة المجاهد

العدد : ٢١١ الموافق في ربيع أول ١٤٢٠ هجري ٧ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : كوسوفا وسنجق بين التآمر والعجز	بقلم : مدير التحرير

١.**البلقان** كلمة ترجع في أصولها إلى التركية وتعني « الجبل » ، وهي تضم – منذ القرن التاسع عشر الميلادي – الدول الآتي ذكرها :

اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، ألبانيا ، والاتحاد اليوغسلافي الذي تفكك منذ عام ١٩٩٠ إلى الدول الآتية :

يوغسلافيا الاتحادية ، كرواتيا ، البوسنة والهرسك ، وسلوفينيا ، مقدونيا

٢. يوغسلافيا الاتحادية : تتكون من جمهوريتين هما : صربيا و الجبل الأسود . ومن ثلاثة أقاليم هي :

- **فويفودينا** : وغالبية سكانها من غير المسلمين .

- **كوسوفا** : وتسمى في كتب التاريخ (قوصوه) وأصبح معلوماً أن عدد سكانها قرابة المليونين ، أكثر من ٩٠% منهم مسلمون من أصل ألباني .

- **سنجق** : ويقع هذا الإقليم بين البوسنة والهرسك ، والجبل الأسود ، وكوسوفا ، وصربيا ، ويشكل المسلمون من أصل بوشناقي (بوسنوي) الغالبية العظمى من سكان الإقليم البالغ عددهم ٣٠٠ ألف نسمة ، ويشكل هذا الإقليم الجسر الذي يصل مسلمي البوسنة بإخوانهم في كوسوفا وألبانيا ، وقد تقاسمت صربيا والجبل الأسود هذا الموقع الحيوي ، وتمارسان عليه سياسة تفريغه من سكانه الأصليين ، وزرع آخرين مكانهم .

٣. الوجود العثماني : باختصار نقول :

* بدأ في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم انتشر في البلقان إلى أن خضع لسلطان العثمانيين معظم أقطاره .

* انتهى الوجود العثماني – عملياً – في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، واستقر في صورة دوله المعروفة بعد الحرب العالمية الأولى .

كان للوجود العثماني تأثير ضئيل في نشر الإسلام في البلقان ، ومعظم الشعوب التي اعتنقت الإسلام أسلمت قبل الوجود العسكري المباشر للعثمانيين في تلك البقاع .

٤. المملكة اليوغسلافية : برزت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ثم عصفت بها رياح التغيير

التي رافقت الحرب العالمية الثانية ، وحل محل المملكة اليوغسلافية جمهورية يوغسلافيا الاتحادية بزعامة المارشال الكرواتي « تيتو » ، فلما انهار الاتحاد السوفييتي هبت رياح العزة القومية في أرجاء جمهورية يوغسلافيا الاتحادية ، وتفككت إلى دول سبقت الإشارة إليها .

٥. مأساة قوصوه (كوسوفا) :

أيد الألبان المسلمون من سكان قوصوه الجنرال تيتو ؛ طمعاً في دحر النازية ، وأملاً في تحقيق مطامحهم القومية . إلا أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فرضت الشعور ببناء القومية اليوغسلافية ، ومارست السلطة الشيوعية سياسة « القبضة الحديدية » فأسكتت الصوت القومي الخاص إلى حين ، ولكن شعور ألبان قوصوه بخصوصياتهم القومية كان يتحرك تحت الرماد ، وحين شعرت الدولة اليوغسلافية بإخفاق محاولة بناء قومية جديدة تذوب فيها القوميات المشكلة لجمهورية يوغسلافيا الاتحادية ، أقرت في دستورها بالحق القومي للجميع ، وذكر دستور ١٩٧٤ الحقوق القومية لإقليم قوصوه ، ومنحه حكماً ذاتياً واسع النطاق .

في هذا الجو رحل زعيم يوغسلافيا القوي تيتو ، وأسفرت الانتخابات عن ظهور القوميين الصرب ، باعتبار جمهورية صربيا أكبر جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية ، وسرعان ما باشر هؤلاء القوميون عملية « تصريب » الدولة ومؤسساتها ، وكان من جملة ما صنعوه أن ألغوا الحكم الذاتي لقوصوه وفرضوا على الإقليم رؤيتهم ومناهجهم منذ عام ١٩٨٨ ، وبدأ ألبان قوصوه المقاومة ، ودخلوا في صراع مفتوح غير مسلح مع السلطة الصربية ، وحين ألغت حكومة بلغراد نظام الإقليم التعليمي ، قابل السكان هذا القرار بالامتناع عن الدراسة وفق مناهج الصرب ، وباشروا تعليم أبنائهم بطريقة نادرة تؤكد على المقاومة .

تابعت حكومة بلغراد الصربية سياسة « التصريب » بإصرار ، ورفض ألبان قوصوه تلك السياسة بعناد ، وأسفرت المواجهات بين الفريقين إلى تراكم الشعور لدى غالبية إقليم قوصوه بأن التعايش مع الصرب ضرب من المستحيل ، وبدأت فصول جديدة تمثلت بالتنكيل الفظيع بالألبان ، وزرع فكرة الهجرة ، وبهروب الناس شيئاً فشيئاً تجمعت نذر الأزمة في سماء الدول المجاورة في أوروبا ، فهبت تدافع عن مصالحها أمام تهديدات الصراعات القومية التي يمكن أن تنشب في البلقان .

٦. حلف شمال الأطلسي :

* من المعلوم أن هذا الحلف العسكري قد تكون في الظروف التي خلفتها الحرب العالمية الثانية ،

وأن مهمتة الأساسية كانت الدفاع عن أوروبا الغربية من الآلة العسكرية الروسية التي شكلت خطراً بسيطرتها على أوروبا الشرقية .

* ولا يخفى أن دول أوروبا الغربية قد قبلت على مضض بوجود أمريكي كبير على أراضيها – بما يفرضه عليها من تبعات مالية ، وبما ينتقص من سيادتها – لأنها كانت تشعر أن هناك « ضرورة » تحتم الوجود الأمريكي لتعديل ميزان القوى في القارة الأوروبية .

* وبتفكك الاتحاد السوفييتي داعبت فكرة تقليص الوجود الأمريكي في أوروبا عدداً من دوائر القرار الأوروبي ، وبخاصة ألمانيا وفرنسا . إلا أن التفكير « الاستراتيجي » الأمريكي كان لهم بالمرصاد ، وكان قرار أمريكا واضحاً ، **ويتلخص في :**

لا بد من استمرار وتوسيع قاعدة حلف شمال الأطلسي ، فالتغييرات السياسية الدولية تستدعي مراجعة الأهداف ، ولكنها تفرض استمرار الحلف ، وهذا يعني ضمان الوجود الأمريكي القوي .

* ولكي تؤكد أمريكا على أنها ستبقى في أوروبا دعت إلى قبول عضوية دول كانت جزءاً من حلف وارسو ، واستغلت الصراعات العرقية في البلقان ولقنت أوروبا درساً في البوسنة والهرسك ، حين تركت الاتحاد الأوروبي يشعر بضعفه أمام مأساة البوسنة والهرسك ، ويلمس بيديه أن روسيا أسد جريح ، ولكنه ما يزال على قيد الحياة ، وأن أوروبا إذا تخلت عن أمريكا فإن الثمن الذي سيدفعه الأوروبيون سيكون باهظاً ، لأن أوروبا لن تكون قادرة على مواجهة القوة الروسية ، فتدخلت أمريكا بعد أن جربت أوروبا عزمها ، وخرجت على الدنيا باتفاق « دايتون » الذي أنهى المواجهة المسلحة ولكنه لم يقض على أسباب الأزمة ، وضمن لأمريكا وجوداً قوياً في (لا شعور) أصحاب القرار الأوروبي .

فلما ذرَّ قرن أزمة قوصوه كان الوجود الأمريكي من بدايتها وجوداً ريادياً ، وتمكن الساسة الأمريكيون من تحريك الأوراق باتجاه تأكيد العجز الأوروبي في حل الأزمات داخل أوروبا ، فالآلة الصربية قوية ، وروسيا تعلن رفضها التدخل في شؤون الصرب ، وتحتاج إلى قوة لإقناعها بضرورة تقليم أظافر القوميين الصرب قبل انتشار النار في هشيم البيت الأوروبي.

ولم تكن الأهداف الأمريكية غائبة عن الأوروبيين ، ولكنهم مجبرون على التعامل مع ميزان القوى الواقعي ، ومع المصالح أيضاً ، فرأت أوروبا أنه لابد من الإقرار بالوجود الأمريكي ، ولما ساءها التصرف الأمريكي المنفرد والمتمثل في المباحثات مع روسيا ، رأت أوروبا أنه لا يصح أن تكون في معزل عن التفكير في الحلول ، ولذلك أرسلت مبعوثاً خاصاً « الرئيس الفنلندي » لكي تضمن نوعاً من

التأثير في القرارات ، ليشارك في رسم صورة الحل السياسي .

٧. **روسيا :** كانت روسيا مدركة لطبيعة الصراع الخفي بين أمريكا وأوروبا ، وتعلم أن أمريكا عازمة على تقليص الحجم الروسي إلى الحد الذي لا يزعجها ، ولكنه لا يخيف الأوروبيين . وهذا يضمن لأمريكا مساحة شاسعة للمناورة والانفراد بالقرار العالمي ، ولم يخف الروس امتعاضهم من توسيع دائرة حلف شمال الأطلسي ، وبنوا سياستهم في أوروبا على تأييد محاولات الانفلات من المصيدة الأمريكية ، فلما اضطرب البلقان ألقت روسيا بثقلها في أزماته ، وحاولت إثبات دورها العالمي من غير الدخول في مواجهة مباشرة مع أمريكا .

ولا يخفى أن روسيا تتحرك بدوافع المصلحة ، وينضاف إليها في أزمة البلقان كون الصرب يتحدرون من أصول سلافية مثل عامة الروس ، وكونهم أيضاً ينتمون إلى المذهب الأرثوذوكسي ، فالشعور القومي والديني – المذهبي – كان وراء الدوافع المصلحية .

واستطاع الساسة الروس تحقيق مجموعة من الأهداف في تحركهم السياسي أثناء الأزمة بين صربيا وحلف شمال الأطلسي ، تمثلت في :

* الاعتراف بالدور الروسي الرئيسي في هذه الأزمة .

* تراجع حلف شمال الأطلسي من الانفراد في حل أزمة البلقان ، وإعادة القرار إلى الأمم المتحدة ، وهذا فتح الطريق أمام روسيا لإرسال قوات عسكرية لتشارك في حفظ الأمن وتنفيذ القرار الأممي ، وتحركت في ظروف الترتيبات وأربكت الحلفاء .

٨. **العالم الإسلامي** : جاءت هذه الأومة لتؤكد أن المسلمين بدولهم التي تجاوزت الخمسين (!!) ما يزالون كما قال الشاعر :

ويُقضى الأمرُ حين تغيب تيمٌ ولا يُتأمرون وهم شهودُ

حتى مستوى التفاعل الحكومي والشعبي مع هذه الفاجعة كان فاتراً وضعيفاً، بل إن عدداً من أقطار العالم كانت مع الصرب معللة ذلك بأنها ضد الجشع الأمريكي . وحين اجتمعت مجموعة الاتصال المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي لم تجد في جعبتها إلا أن ترجو حلف شمال الأطلسي أن يستمر في قصف الصرب إلى أن يقبلوا بعودة اللاجئين !!

وكشفت هذه الفاجعة عن الحالة المفزعة للمسلمين حكاماً ومحكومين ، والتي تتلخص في شكايتهم من أمريكا وجشعها وصواريخها وأسلحتها الفتاكة التي تدمر بلاد المسلمين ، وتغتال حاضرهم

ومستقبلهم ، إلا أن المسلمين يتطلعون في مواطن أخرى إلى الآلة العسكرية الأمريكية - الأوروبية لكي تنقذهم من عدوان بعضهم على بعض ، أو من عدوان الآخرين عليهم !! . إن هذا يمثل أدنى درجات العجز ، وله إيحاءاته الخطيرة في النفوس .

٩. بقية دول العالم : وهذه تعيش في مستنقع همومها ومشكلاتها ، باستثناء الصين التي تبحث عن دور عالمي ، وتعطيها عضويتها الدائمة في مجلس الأمن إمكانية في المناورة ، ولولا حادثة ضرب سفارتها في بلغراد لكانت أكثر بعداً عن المشاركة في الحل ، وهي مشاركة جدّ متواضعة !!

١٠. المستقبل :

- حقق الجانب الأمريكي كثيراً من أهدافه : فالقلاقل ما تزال كامنة أسبابها في أوروبا ، وروسيا أخذت دور « البعبع » الذي تخوف به أمريكا شركاءها الأوروبيين ، وبهذا تضمن وجودها على الأرض وفي القرارات الأوروبية .
- خطت أمريكا خطوات على طريق فرض نظامها الجديد على حساب الأمم المتحدة ، وأعطت حلف شمال الأطلسي دوراً أكبر في حل المشكلات ، صحيح أن دستور المنظمة لا ينص على ذلك ، ولكن واقعها يمهد لتغييرات في فقه النصوص ، تمهيداً إلى إلغائها أو تعديلها .
- وهذا الذي حققته أمريكا سيدفع قوى أخرى (أوروبا ، الصين ، روسيا ...) إلى إعادة التفكير ، وإلى مواجهة المخططات الأمريكية ، وبهذا تكون فاجعة قوصوه منعطفاً يحمل في طياته نذر أزمات مستقبلية .
- ولم يحقق مسلمو قوصوه آمالهم في التحرر من الارتباط الوثيق بالدولة الصربية ، وسيتولى حلف شمال الأطلسي الأمن إلى حين ، وسيعمل على صيانة الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية وفق معايير تضمن بقاء هذا الإقليم والمنطقة المجاورة ، تحت هيمنة أمريكية - أوروبية مباشرة ، وهذا سيولد من جديد فكرة التحرر من « الاستعمار » وستشتغل المنطقة بأعمال عنف يصعب التكهن بأبعادها في ظل انتشار الأسلحة الفتاكة التي سهر الغرب نفسه على تطويرها !! ولا شك أن الشعور بالانتماء إلى الإسلام قد استيقظ في قلوب عامة مسلمي البلقان ، وتخشى أمريكا وحلفاءها من نمو ووعي هذا الشعور ، وسيعملون على محاصرته وتشويهه وصرفه عن غايته .. فهل يستطيعون ذلك ؟!
- ويبقى أن يستوعب المسلمون - وبخاصة تيار التجديد الإسلامي - دروس هذه الفواجع والكوارث ، والدليل على ذلك :

* أن يستمر الدعاة إلى الله في واجب الدعوة ، وأن يمسِّكو الناس بالحق كما أنزله الله عز وجل ، على الرغم من المغريات والمخاوف .

* أن يرفع العاملون مستوى اهتماماتهم ، وهذا لن يكون إلا بالاتقاء فهماً وعلماً ووعياً ، وهذا له ثمن وعليهم أن يدفعوه إذا أرادوا أن يكونوا دعاة إلى الله على بصيرة .

* أن ينمو تلاحم الدعاة والتيار الإسلامي بجمهور المسلمين ، وأن يعملوا على تبني قضاياهم المصيرية - المحلية والعالمية - وأن يكون رواد تحريرهم من الأصنام ، والأفكار الضالة ، وهيمنة القوى الاستغلالية .

وهذا يعني أن ينزل التيار الإسلامي إلى ميدان البناء في كل مجال ، وأن يتصدى للواجبات في كل ساحة ، وأن يعطي المثال الرائع في الوعي ، والبذل ، والجهاد . وبهذا ينقذ الدعاة أنفسهم وأمتهم والانسانية من شرور الفراعنة العالميين والمحليين ، ومن جشع القوارين الصغار والكبار .. ويفوزون يوم القيامة برضوان من الله كبير .